

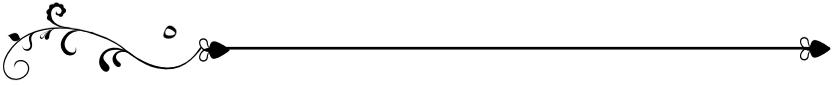
السلامُ المرُّ

هشام عيد - مصر

مضطربٌ منذ أتى، تلاحقه ذكرياتٌ قاسيةٌ ووجوهٌ داميةٌ، تحيطه أرواحٌ هائمة، صورٌ غير مكتملة لأشلاء ودماء، جريٌّ وصُراخ، يلتفت يمينًا ويسارًا فلا يجد سوى الفراغ، يشعره الزحام بالوحدة أكثر، يتلاحم مع هذه الأرواح الغامضة، يحدثها.. تحدثه، يبادلها السباب والعِشق، يبدو في عيون الناس مجنونًا، شعره الأصفر وعيونه الزُّرق، بياض بشرته الشديد، غريب بين هؤلاء الناس!

جاء بينهم منذ خمس سنوات، انتقل من ضجيج الدم والمدافع إلى زحامهم ونظراتهم وسخرياتهم التي لا تقلُّ قسوة عن عذاب انتظار الموت، منذ جاء وهو يشعر أنهم مزدحمون، مُحمَّلون دائمًا، الأطفال يسخرون منه، من لونه الغريب ولُكنته الغريبة، وثأثأة لسانه التي خَلَّفها الخوفُ ودويُّ المدافع، في عيونهم يبحث عن عينٍ مشفقةٍ تحتضنه، لكنها كلها ساخرة، غريبة، فليحتِّم بالجنون علَّه ينجو من بطشهم؛ فليحتِّم بالبعد أكثر.

اسمه "ماجد"، أبوه يعمل بالسياحة، في إحدى سفاراته إلى البوسنة التقى أمّه، وحين قامت الحرب المرعبة التي شتَّها الصرب على شعب البوسنة المسلم في حملة تطهير عرقيٍّ؛ نجا بزوجته وابنه وابنته الصغيرة، عائداً إلى وطنه، كان الطفل في الثامنة؛ سنوات التَشكُّل، التشكل المضطرب من



الحرب إلى الزحام.. العيون.. الوحدة.. الغربة.. بأي لغة يتحدث الصغير؟ أمه
تحدث اليوغوسلافية ومها يتحدث أبوه في المنزل، لكنهم في الشارع يتحدثون
بلغة ميمية وأصوات متداخلة وعيون جاحظة في سخرية تبعثر النفس،
وتفقد التوازن.

ترسب الخوف بداخله من دوي الحرب والقتلى، الأذرع المتقطعة والرقاب
المتناثرة- كان منذ قليل يحدثه ثم هو أشلاء ملقاة على الطريق- ليس للخوف
صورة مصغرة عنده كبقية الأطفال.. الخوف هنا من نوع جديد.. ربما أبسط
لكنه يترك بداخله نفس الإحساس الكبير بالرعب.. لم يعد للرعب حدود
بداخله.. أبسط المخاوف تثير أبشع الأحاسيس!

حدته الأب عن الأرض الطيبة والناس البسطاء والهواء الذي يحمل
المحبة.. عن الشمس حدته، عن جمال الروح حين تبدو في العيون، عن طيبة
اللقاء والاحتواء بلا مقابل.. كل الأيدي تحتضن.. كل العيون ترحب.. عن
طينة تقبل في حنان أي زرع.. عن نيل يكفي أن تشرب منه شربة فتصير
منهم.. حدته أبوه، لكن لم يمنحه الوقت الكافي.. ربما كان يجب أن يكون معه
لفترة.. ربما كان يجب أن يكون هو أكبر قليلاً.. ربما كان هناك ما يجب أن
يتجاوزه ليتحقق التمازج.

تركة الأب يتحرك في الشارع كما يشاء.. يريد أن يكسبه خبرة الالتحام، لكنه
لم يؤهله بما يكفي.. لم يبق معه.. لا يكفي أن يكونوا أبناء وطنك ليكونوا
أروع من في الأرض.. لعل الأشياء تغيرت منذ بعدك الأخير.. ولعل الطفل كان
يجب أن يتعامل مع من هو أكبر.. من يستطيع تجاوز ثأثاته وبلاهة نظرتة
المغتربة.



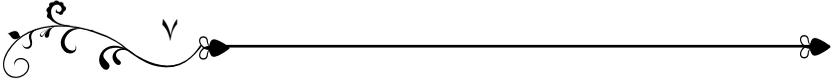
حام حوله الصغار.. تربعوا به.. لم تكن في عين معظمهم الرغبة في الصداقة بقدر ما كان فيما التساؤل.. بعضهم أراد أن يختبر قوته -على قدر القدرة على البطش سوف تكون المهابة-.. سرعان ما اكتشفوا أنه جبان.. مُرتعب.. جسمه الكبير منحهم الرغبة أكثر.. بعد وقت قليل كان لكل صبي قصة في ضربه.. كانت نبرة الفخر تملأ أصغرهم حين يقصُّ طريقة طرحه أرضاً!

كلما كبر كان الخوف يكبر بداخله والرغبة في الاختفاء تزيد.. ليته يمضي فلا يراه أحد.. ليته يصادق أحداً فيحتمي به.. ليت أباه الذي يظنه شهماً يعرف أنه أضحوكة.

حاول الأب الذي اطمأن لعشيرته أن يسانده على البعد.. أحقه وأخته بالمدرسة حين وصلا.. نجحت تجربة أخته لأن مجالها الضيق من البيت للمدرسة، سمح لها أن تتكوّن.. أن تنسى.. أما هو فلا.

انزوت الأم في بيتها.. تَشَتَّت القلبُ بين هنا وهناك، انتهت الحرب هناك باتفاقية "دايتون" الأشبه بالسلام المر الذي يمنح المغتصب ما لا يستحق ويسلب الضحية حقَّ الدفاع وساوى بينهما على طاولة التفاوض وعلى الأرض أيضاً.

بكت الأم يومها كما أمّ تبكي أبداً.. لم تبك كذلك أثناء الإبادة.. كانت وأبوه مشغولين بالهرب والرحيل وجمع الحطام.. قالت: "مُجَرَّد أن يجلس" فلوبودان ميلوسوفيتش" مع العظيم "علي عزت بيجوفيتش" - عاز.. كيف فرضوا أن يجلس الإنسان مع الشيطان ليتفاوض!؟"



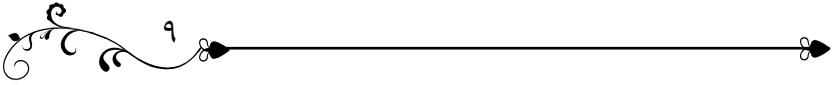
استعان بجهاز صغير يُخفيه داخل ذاته "ووكمان" يصرخ داخل أذنه باستمرار.. لا يستمع للأغاني لكنه يهرب فيه فيظن أن الناس منصرفَةٌ عنه.. يتلاشى عيونهم وصبياتهم.. فضَّل المشي في الأماكن البعيدة: لأنهم يحسنون لمن يظنونه أجنبياً.. استمع إلى كلماتٍ لطيفةٍ حَبَّبَتْهُ . Welcome . Hi . Hello في البعد إلى أقصى مدى والجهاز في أذنه.. وشعره أصفراً.. ليبعد أكثر.. وحين يشعر بقُربِ اكتشافِ جبنه.. وحين تصرخ داخله الرهبةُ وتضيق عليه نفسه؛ كان يطيع رغبةً عارمةً في السباب والقذف وضرب الحجارة بقدمه.. يَسُبُّ الفراغ.. يشتم بأعلى صوته.. يضرب بكل قوة.. لعل أحدهم هناك يترى به فيخاف بطشه!

أخذته ذات مرةٍ من يديه إلى "شَلَّة" وطلبت منهم أن يصاحبوه.. إنه ابن الحتة.. فوجئت أن أحدهم حاول لكنه هو رَفُضَ.. وبدأت على "ماجد" نظرة مستهترة وتركي ومضى.. شعرت من كلام الفتى بالصدق.. حكى لي أنه يمضي في الشوارعِ يَسُبُّ الهواء ويضرب الفراغ بقوة.. شعرت أن وضعه كأبله قد تأصل.. مضيت صامتاً.. شعرت أنه يَسْتَمِرُّ الجنون.

لا تكفي الإشارة للقبیح بقبحه حتى يتغير!

ذات ليلةٍ في تجواله بغير هدى أخذته قدماه بعيداً.. هائمٌ الروح والجهة.. يستمع بأقصى طاقته مختفياً داخل جهازه.. لم يوجه عينيه لأي عين.. ولكنه كان يَتَلَصَّصُ أثناء سيره النظر إلى أولئك الذين يتحدثون في بساطة وتكافؤ.. أحاديث عادية.. ليست عن أشياء عميقة ولا غامضة.. أشياء بسيطة.. حياة عادية.. مُتْكَافئة.. بلا سخرية.. يفهم الآن الكثير من هذه اللغة.. ربما أكثر من لغته الأصلية.. فوجئ بنفسه يقترُب من ثلاثةٍ في مثل سنّه.. هل يبدأ سَبِّ





أحدهم الشفرة في عينيه.. جري.. جري.. بأقصى ما تستطيع الروح
والقدمين..

عندما عرف أبوه احتضنه بحنان.. في حضن أبيه.. فقط.. بكى بقوة..
في اليوم التالي.. استطاع أبوه أن يسترده "الووكمان".. عرض الضابط
تأديهم، لكنّه أثر السلام خشية أن يبطشوا بابنه فيما بعد!
أصبح الآن في السادسة عشرة.. تأصّلت بلاهته لكنه اكتسب خبرة قليلة
أتاح له الحد الأدنى من التعامل وانطفأ بريقه لدى الأطفال.. ما يزال بغير
صديق.. ولم تحدّثه للآن فتاة غير أخته..

الخُطى أصبحت مُبَطَّنة والأذرع متهدّلة.. صار مهلّهل الملابس.. أصبح صامتاً
إلى أقصى درجة كأنما أصيب بالخرس.. صمّماً إرادياً أبله لا يخترقه أبداً..
وصارقزيراً إلى حد ما.. بلا أدنى رغبة في المقاومة..

في "ميدان الحلمية" الشهير.. يتجمع شباب كُثُر.. الإضاءة الكثيفة تمنحهم
مظهرًا مبهجًا ومتألّقًا.. أصواتهم صاخبةً وضحكاتهم تبعث في النفس الصبا..
بلا أي هموم..

غير بعيد.. في إحدى الزوايا الخافتة رأيته يقف وحده.. في أذنيه
"الووكمان" يرقص.. يتمايل طرباً مبالغاً فيه.. كنت على الصف الآخر.. حييته
من بعيد.. حياني دون أن يتوقّف عن الرقص.. مضيت قليلاً.. داهمتي رغبة
في العودة والذهاب إليه..

اقتربت.. كان يرقص.. في عينيه بريق.. اقتربت أكثر.. كانت الدموع تملأ وجهه..
وأفنه تسيل.. كان هذه المرة يختمني في الرقص.. حتى لا يرى دموعه أحد..

